العلامة المفسر شيخ الإسلام أبو السعود العمادي
وتفسيره ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم

الدكتور بدر الدين جتين آر

أبو السعود هو محمد بن محمد بن مصطفى الاسكليبي العمادي ولد في سنة 1490/896 بمدينة اسكليب و والده هو الشيخ محمد محي الدين الياوسي من جملة طلاب على قوشجي الشهير بين علماء الدولة العثمانية ، وأمه هي سلطان خاتون من قرابة على قوشجي أيضا .

ان أبا السعود من المعمرين . وهو عاش في عهد أربعة سلاطين من العثمانيين وهم بايزيد الثاني وسليم الأول والسلطان سليمان القانوني وسليم الثالث . وحين توفي كان في السابعة والثمانين من عمره . وكانت وفاته في استانبول سنة 1574/982 .

فكانت صلاة جنازته بجامعة السلطان فاتح ثم دفن بفناء مدرسة أنشأها هذا العلامة في حياته بمنطقة أيوب سلطان باستانبول .

وله من الأولاد خمسة ، أربعة منهم ذكور ومن سوء حظه أن مات جميع أولاده في حياته ماعدا ابنه مصطفى .

وكانت نشأته عند أبيه الشيخ محمد محي الدين ودرس عليه كما درس على علماء زمانه الكبار ثم تزوج بابنة أستاذه مولانا السيد قرماني ، الآنسة زينب خاتون .

بعد اكمال دراسته انتسب إلى خدمة الدولة العثمانية وشغل مناصب مختلفة كمدرس وقاض وقاضي عسكر ومفت وشيخ الإسلام للدولة العثمانية وقد كان المنصب الأعلى لعالم في العهد العثماني .

وإلى جانب الطلاب الذين درسوا عليه ، ألف كثيرا من المؤلفات في التفسير والفقه

والفتاوي وفي الموضوعات الدينية والإجتماعية والإقتصادية ما بين مؤلف مستقل وحاشية وتعليقة ، ويبلغ عدد مؤلفاته إلى العشرين حسب ما أشارت إليه المصادر وكتب الطبقات .

تفسيره

فاننا نرى أن كثيرا من علماء الدولة العثمانية الأتراك قد اتجهوا إلى تأليف تفاسير بعض السور القرآنية بدلا من أن يؤلفوا التفاسير العامة لكتاب الله العزيز . وقليل منهم مثل العلامة أبي السعود ألفوا تفاسير تامة . فتفسير أبي السعود من هذه التفاسير العامة للقرآن الكريم ويسمى بـ " ارشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم " .

ان العلامة أبا السعود ألف تفسيره هذا وأهداه إلى السلطان سليمان خان القانوني والمؤلف نفسه بيّن كيف ألف هذا التفسير ولماذا ألفه بقوله :

" ولقد تصدى لتفسير غوامض مشكلاته أساطين أئمة التفسير في كل عصر من الأعصار وتولى تيسير عويصات معضلاته سلاطين أسرة التقرير والتحرير في كل قطر من الأقطار فغاصوا في لجبه وخاضوا في ثبجه فنظموا فرائده في سلك التحرير وأبرزوا فوائده في معرض التقرير وصنفوا كتبا جليلة الأقدار وألفوا زبرا جميلة الآثار .

أما المتقدمون المحققون فاقتصروا على تمهيد المعاني وتشييد المباني وتبيين المرامي وترتيب الأحكام حسبما بلغهم من سيد الأنام عليه شرائف التحية والسلام .

وأما المتأخرون المدققون فراموا مع اظهار مزاياه الرائقة وابداء خباياه الفائقة ليعاين الناس دلائل اعجازه .. لا سيما الكشاف وأنوار التنزيل المتفردان بالشأن الجليل والنعت الجميل . فان كلا منهما قد أحرز قصب السبق أي احراز كأنه مرآة لاجتلاء وجوه الاعجاز صحائفهما مرايا المزايا الحسان وسطورهما عقود الجمان وقلائد العقيان .

ولقد كان في سوابق الأيام وسوالف الدهر والأعوام أوان اشتغالي بمطالعتهما وممارستهما وزمان انتصابي لمفاوضتهما ومدارستهما يدور في خلدي على استمرار آناء الليل وأطراف النهار أن أنظم درر فوائدهما في نمط دقيق وأرتب غرر فوائدهما على ترتيب أنيق وأضيف اليهما ما ألفيته في تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق وصادفته في أصداف العيالم الزاخرة من

زواهر الدقائق وأسلك خلالها بطريق الترصيع على نسق أنيق وأسلوب بديع حسبما يقتضيه جلالة شأن التنزيل ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية من عوارف معارف تمد اليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب وغرائب ترنوا إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب وتحقيقات رصينة تقيل عثرات الأفهام في مداحض الأقدام وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام في معارك أفكار تشتبه فيها الشؤون ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون من دقائق السر المخزون في خزائن الكتاب المكنون ما تطمئن إليه النفوس وتقربه العيون من خفايا الرموز وخبايا الكنوز ، وأهديها إلى الخزانة العامرة الغامرة للبحار الزاخرة لجناب من خصه الله تعالى بخلافة الأرض ... عاشر الخواقين العثمانية السلطان بن السلطان سليمان خان بن السلطان سليم خان بن السلطان بايزيد خان ... " (1) .

لقدم ما ألف من التفسير إلى السلطان الذي أراد أن يرى ما تم تأليفه وهو ما زال في مرحلة التأليف فعندما قرأه السلطان أعجب به ورفع شأن مؤلفه برفع مرتبه اليومي إلى خمسمائة آقجة ، وكان المرتب اليومي لمنصب شيخ الإسلام قبل ذلك مائتي آقجة .واضافة إلى ذلك ألبس مؤلف هذا التفسير خلعات وأكرمه بأنواع من الاحسان والعطايا .

وبعد اكمال التفسير في سنة 1566/973 أضاف السلطان على مرتب العلامة أبى السعود اليومي مائة آقجة اضافية أيضا (2) .

عقب اتمام التفسير أرسلت نسختين منه إلى المدينة المنورة ومكة المكرمة فأذن لطلاب العلم لاستنساخه .

فنرى أن أبا السعود قد لقب بتفسيره هذا بلقب " زمخشري البلاد الرومية " و " خطيب المفسرين " واستحق هذا التفسير عنوان " الثالث " كما يقال لتفسير الزمخشري " الأول " وتفسير البيضاوي المسمى بأنوار التنزيل " الثاني " في الأدب التفسيري .

حتى ان بعض علماء تاريخ التفسير يدعى أن تفسير العلامة أبي السعود أبرع وأفضل من هذين التفسيرين ببعض ميزاته الخاصة له كما نشير إليها فيما بعد .

قال أوليا جلبي بعد أن صرح بأن أبا السعود قد لقب بلقب " النعمان الثاني " : " ان

العلامة أبا السعود قد ألف تفسيره هذا مستفيدا من ثلاثة آلاف عالم ومستفيضا من نحو ألف وسبعمائة تفسير معتبر عند المسلمين " (3)

ورغم ذلك حسب ما بينه المؤلف في مقدمة تفسيره ، قد اعتمد على تفسيرين وهما الكشاف عن غوامض حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري المتوفي 538 /144 وعلى أنوار التنزيل وأسرار التأويل للقاضي ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي المتوفي سنة 1286/685 .

والمصدر الثالث المهم بعد هذين التفسيرين القيمين هو مفاتيح الغيب المسمى بالتفسير الكبير لفخر الدين محمد بن عمر التيمي الرازي المتوفي سنة 1209/606 - 1210 كما نقل عن كثير من المفسرين القدماء بعزو كل قول إلى قائله . ومن بين هؤلاء المفسرين نرى أن المؤلف نقل عن البسيط والوجيز والوسيط للواحدي المتوفي سنة 1075/468 ومعاني القرآن لمكي بن ابراهيم كما ينقل عن سيبويه والفراء المتوفي سنة 822/207 وغيرهم من علماء اللغة العربية .

ولكن المؤلف لا يتحدث عن أنه أخذ عن الزمخشري والبيضاوي ونقل عن تفسيرهما رغم انتحالاته منهما كثيرا . ومع ذلك قد صرح عن أخذه من الزمخشري في مكان واحد وهو أثناء تفسير آية الثلاثين من سورة البقرة ، وفي مكانين ذكر اسم الفخر الرازي وهما أثناء تفسيره الآية 83 من سورة الكهف وآية 158 من سورة الصافات .

ولكننا نرى المؤلف لم يتحدث ولو في مكان واحد عن اسم القاضي البيضاوي رغم انتحالاته الكثيرة منه .

كما أسلفنا القول أن المؤلف قال في مقدمة تفسيره أنه أراد أن يضيف على ما وجده من جواهر وأصداف في التفسيرين الجليلين للامامين الزمخشري والبيضاوي ما سيجده في التفاسير الأخرى وأن يؤلف ويرتب الجميع بأسلوب بديع . فكأنه رأي هذه الإشارة كافية له وتجنب تكرار اسمهما في كل ما أخذه منهما . ومن ناحية أخرى فإن كثيرا من المؤلفين قد صرحوا في مؤلفاتهم بالمصادر التي استفادوا وأخذوا منها مع أننا لا نرى هذه الحساسية في

تفسيري الزمخشري والبيضاوي ، فانهما أيضا لم يذكرا مصادرهما في كثير من الأحيان . ولعل العلامة أبا السعود تابعهما في هذا المنهج كما تابعهما في كثير من آرائه وتفسيراته للآيات القرآنية ، فعلى كل تقدير إذا ما قارنا ارشاد العقل السليم بالتفسيرين تفسير الزمخشري والقاضي البيضاوي نرى كثرة نقل المفسر منهما ، وحسب ما قاله الباحث الدكتور عبد الله آيدمير ، يمكن تصحيح الأخطاء المطبعية الموجودة في ارشاد العقل السليم مستعينا من الكشاف (4) .

فتفسير أبى السعود العمادي يعتبر من نوع التفسير بالدراية والرأي كما هو ملحوظ من مصادره التي استفاد منها ، ومع ذلك ، الأحاديث التي اشتملت عليها و بتعبير آخر الأحاديث التي استخدمها لبيان معاني كتاب الله العزيز ليست بقليلة وعددها أكثر من ألف ومائتي حديث مع ما روي من الأخبار في موضوع أسباب النزول .

ومن ناحية أخرى لم يدخل المفسر موضوع الجرح والتعديل ولذلك نرى في تفسيره هذا أحاديث ضعيفة وموضوعة ولو كانت قليلة العدد كما كان في تفسيري الزمخشري والبيضاوي، وعلى الخصوص قد أخذ المؤلف الأحاديث المروية في فضائل السور من هذين التفسيرين بدون أي تعليق ويبلغ عددها إلى مائة وعشرين حديثا ، وجدير بالذكر هنا أن المصادر لا تشير إلى تخصص العلامة أبى السعود في علم الحديث وخاصة في النقد (الجرح والتعديل) كما أننا ما صادفنا له مؤلفا في علم الحديث وعلم الجرح والتعديل والرجال رغم أنه ألف في كثير من العلوم الإسلامية عدة مؤلفات .

وفي موضوع القراءات لا يوجد فرق كبير بين ارشاد العقل السليم والتفسيرين المذكورين إلا أنه يشير أحيانا إلى القراءات الشاذة خلافا للزمخشري ، لأن الزمخشري ذكر القراءات الشاذة بدون الإشارة إلى شذوذها ويبني عليها الأحكام والتفسيرات المذهبية الاعتزالية .

ومن دواعي الأسف أن تفسير أبى السعود لم يسلم من بليّة الاسرائليات كما هي معهودة لكثير من التفاسير ان لم نقل لجميعها وذكر المؤلف ما وجده من هذا القبيل في التفسيرين الذين نعتبرهما مصدرين له ، وأن رأي فيهما تعليقا على الاسرائليات فأخذه وإلا ذكره بدون أي تعليق عليه .

وأما موقفه في ابراز البلاغة القرآنية وبيان وجوه اعجازه فإنه بذل جهده في بيان أسرار الاعجاز في النظم القرآني وأسلوبه وأمكنة الوصل والفصل ومواقع الإيجاز والأطناب والتقديم والتأخير والاعتراض والتذييل الخ .. وذكر المعاني الدقيقة التي اشتملت عليها التركيبات القرآنية بأسلوب بديع . وهو أول من تصدى لهذه المعاني الدقيقة في تفاسيرهم كما قال الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه التفسير والمفسرون (5) .

ومن ناحية أخرى فإن معظم المعلومات التي نجدها في ارشاد العقل السليم في هذا الموضوع مبتكر نكاد لا نجدها في الكشاف وأنوار التنزيل .(6) ولا شك في أن تفسير أبي السعود العمادي يعتبر بين أهل التفسير واللغة قمة شامخة - كما قال الأستاذ عبد القادر أحمد عطا في مقدمة نشره لهذا التفسير - في الفكر اللغوي وفلسفته وأسراره فاق به عبد القاهر الجرجاني وغيره ممن تعرضوا لهذا الشأن . وبهذه الميزة يعتبر هذا التفسير كتابا لاعجاز القرآن ومصدرا غنيا من مصادر اللغة العربية - مع كون المؤلف تركي الأصل - في شواردها ومسائلها النادرة التي اختلف فيها علماؤها ولا سيما أهل البصرة وأهل الكوفة (7) .

ان أبا السعود من علماء الظاهر ولذلك لا يميل إلى التصوف في هذا التفسير ويكتفي بالتفسيرات الظاهرية يعني التفسيرات بالرأي الحر مستمدا من تفسيرات السلف الصالح . ولا نرى في هذا التفسير عبارات تدل على أن المؤلف انتسب إلى طريقة كذا وكذا كما أنه لا يفسح المجال في هذا التفسير للتفسيرات الاشارية والتصوفية ، ولكنه لا ينتقد الصوفية في هذا التفسير كما فعله الزمخشري في كثير من المناسبات في الكشاف .

ان هذا التفسير قد تم تأليفه في مدة قصيرة وبخاصة بحث من السلطان السليمان القانوني ثم تلقاه العلماء بالقبول ونال قبولا منهم وازداد رواجا بين العلماء وطلبة العلم ولذلك استنسخ مرات وانتشر صيته في البلاد الإسلامية عامة ، والآن نرى كثيرا من نسخة الخطية في جميع مكتبات المخطوطات بجانب طبعاته العديدة في مختلف البلاد الإسلامية .

الطبعة الأولى لهذا التفسير ما طبع ببولاق المصرية سنة 1275 - 1285 كما طبع ببلاق أيضا بهامش مفاتيح الغيب للرازي سنة 1289 كطبعة ثانية .

ولهذا التفسير طبعة القاهرة سنة 1307 - 1308 وسنة 1372 كما طبع في استانبول بدار الطباعة العامرة سنة 1307 - 1308 بهامش مفاتيح الغيب للفخر الرازي.

وقد عمل على هذا التفسير بعض العلماء شرحا وتعليقا وحاشية وأثبت صاحب كشف الظنون ثلاثة وهي :

1 - ألف الشيخ زيرك زادة محمد بن محمد الحسيني شرحا لديباجة التفسير ومقدمته .

2 - ألف الشيخ أحمد الرومي الأقحصاري تعليقة لهذا التفسير لما بين سورة الروم وسورة الدخان .

3 - ألف شيخ الإسلام رضى الدين محمد بن يوسف الشهير باسم عبد اللطيف القدكمية حاشية على هذا التفسير ولكنه لم يتمها بل وصل إلى آخر سورة الأنعام .

4 - وأخيرا ألف الشيخ ابراهيم السقا من شيوخ الأزهر حاشية على هذا التفسير القيم ووصل في حاشيته إلى سورة الأنبياء ولم يتمها .

وباختصار :

1 - ان المؤلف استفاد في تأليف هذا التفسير من تفسيري الزمخشري والبيضاوي بحد كبير ونقل منهما كثيرا .

ب - قد اهتم بتفسير القرآن بالقرآن وبالسنة النبوية .

ج - ذكر أسباب النزول عند الحاجة إليها وإذا وجد أسبابا مذكورة في نزول الآية ذكرها وقيّم هذه الروايات واختار منها ما رآه مناسبا للآية أو ما وجده صحيحا .

د - نراه قد سلك طريقا معتدلا في موضوع الآيات المنسوخة مع أن عدد الآيات المنسوخة على رأي المؤلف ليس بقليل . وهو يقبل نسخ القرآن وعلى ضوء عباراته المختلفة نرى أنه يقبل ضمنيا نسخ الآيات القرآنية بالأحاديث المتواترة والمشهورة .

هـ - لم يتطرق إلى موضوعات أصولية مثل أصول الفقه وأصول الحديث ولكننا نراه أعطى معلومات كافية في موضوعات فروع الفقه كما نراه التزم المذهب الحنفي في مسائل فروع الفقه . وقد التزم مذهب أهل السنة والجماعة وانتقد آراء بعض الفرق الإسلامية مثل

الشيعة والخوارج ورفض آراء المعتزلة .

و - فهل نعتبر أبا السعود محدثا ؟ والجواب عليه صعب ولا يكاد يكون منفيا مع أنه ألم بالحديث مقدار ما يلزم لفقيه اسلامي ولذلك يمكن العثور على الأحاديث الضعيفة حتى الموضوعة منها في تفسيره .

ز - المعلومات التي تسرد حول اللغة والنحو واعراب آيات أشكل اعرابها يشكل قسما كبيرا من التفسير .

ح - ذكرت القراءات مع ما فيها من الشواذ وفي كثير من الأحيان بدون تعليق .

ط - ذكر أبو السعود قصصا أخلاقية وتاريخية كلما دعاه المقام كما أنه لم يتخلص من ورطة الاسرائليات .

ي - فلا نرى في التفسير تأويلات الصوفية

ك - مع كثرة الانتحالات من تفسيري الزمخشري والقاضي البيضاوي انتقدهما بدون تصريح اسمهما وذكر آراءه وترجيحاته عقب تلك الانتقادات . وذلك دليل على أن المؤلف متقن للغة العربية لغة القرآن بنحوها وبلاغتها .

ل - وبهذه الأوصاف التي ذكرناها يعد هذا التفسير آخر تفسير ألف على طريقة الدراية يعني التفسير بالرأي الذي ألف في العهد العثماني مع قلة التفاسير التامة بهذه الطريقة في ذلك العهد .

المراجع

(1) - انظر إلى ديباجة تفسير أبى السعود ارشاد العقل السليم طبعة الرياض 1981/1401 ، ج1 ، ص 3 - 5 .

(2) - انظر ذيل الشقايق النعمانية لعطاء الله بن يحي طبعة استانبول سنة 1268/ ج1 ص 186؛ وانظر أيضا كشف الظنون لحاجي خليفة كاتب جلبى طبعة استانبول سنة 1941 ، ج1 ص 65 .

(3) - سياحتنامة لأوليا جلبى طبعة استانبول 1314 ، ج1 ص 402 .

(4) - انظر كتاب " أبو السعود ومنهجه في التفسير للدكتور عبد الله آي دمير ، طبعة آنقرة بدون تاريخ ص 103 .

(5) - انظر التفسير والمفسرون للذهبي طبعة القاهرة 1976 / ج1 ص 349 - 350 .

(6) - أبو السعود ومنهجه في التفسير ، ص 231 .

(7) - عبد القادر أحمد عطا ، مقدمة نشر تفسير أبى السعود ، طبعة الرياض 1981/1401 ، المجلد الأول ، ص : ح .